طرائف من العصر المملوكي :

٢ ـ ابن الوردى والخمول

للأستاذ محمود رزق سليم

لست أدرى أيصلح « الخمول » مبدأ فلسفياً يعتنقه بعض الناس فى هذه الحياة ، ويستشعر من وراء اعتناقه سعادة وراحة ورضا .. وهل فى مكنة امرىء أن يدفع نفسه دفعاً فى زاوية من الخمول يقبع فيها قانع النفس راضى البال قرير العين بخموله ... أم أن المرء بظروفه وبيئته ، وبدرجة ذكائه وحظه من المعرفة ، قد يؤتى نصيباً من الشهرة والصيت ، وقد يحرم . يؤتى هذا النصيب قسراً عنه ، ويحرمه قسراً عنه كذلك . وصحيح أن المرء بجده وكده واجتهاده وجلاده يكون عاملا من أهم العوامل فى شهرة نفسه ، وفى إيتائها نصيباً من الصيت والحظ الحسن . ولكن مما لا شك فيه أن عوامل أخرى خارجة عن إرادته ، ذات صلة وثيقة بإيجاد هذه الشهرة ، وخلق ذلك الصيت والحظ. قد تكون هذه العوامل معينة للمرء تأتى إليه طائعة مختارة وفق ما يهوى ويشتهى ، فيصل بها إلى ما يرجو من الشهرة ، فى سهولة ويسر . وقد تكون معوقة له واقفة فى سبيله حجر عثرة ، قاسية عاصية فلا يصل إلى ما يرجو إلا بعد لأى وشدة . وقد لا يصل . والدنيا ذات عجائب ، فكثيراً ما تسوق الشهرة إلى من يستحقها ، وتضفى عليه ذيول النعمة ، ثم تنحيها عن رجل هو أهل لها ، وتحرمه أسباب الرضا . وقديماً قال الشاعر .

متى أرت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب إلا خمول نبيه

وبدهى أن المرء الذى من حقه أن تنبه الدنيا شأنه ، ليس امرأ عادياً ، بل قد أوتى من الذكاء وخصوبة الذهن ، ورزق من المعرفة وسعة التفكير ، والقدرة على الإنتاج ، حظاً واسعاً جديراً بأن يجعل منه رجلا مشهوراً من حقه أن تسعى إليه الدنيا ، وأن تنبه شأنه . ودون شك ، هو يرى نفسه جديراً بهذا السعى والنباهة . فإن أوتى منهما حظاً سعد به . وإن حرم ، فإما أن يجدد جهاده وجلاده ، حتى يصل إلى ما تصبو إليه نفسه. وإما أن ييئس ويستنيم إلى الخمول ، ويتخذ منه مبدأ فلسفياً ، ومعتنقاً يعيش به ، ويتسلى باعتناقه ، ويجد لذة فى الاقتناص به ، تعوضه عما فقده من شهرة ، وعما حرمه من نعمة الصيت ، وعما فاته من مباهج الحياة . ولكننى — كما ذكرت — لست أدرى تماماً هل يجد الخامل — أو المتخامل — لذة فى خموله — أو تخامله — ويستشعر من ورائه سعادة وراحة ورضا . ؟ أم هى سعادة اليائس وراحة القانط ؟ وكم من سعادة فى اليأس ، وكم من راحة فى القنوط ..

ثم أيستطيع هذا الخامل — وقد وهب له الله عوامل النباهة مركبة فى طوايا نفسه — أن يستنيم طويلا إلى يأسه ، ويسكن زماناً إلى خموله ، والدنيا من حوله تتحرك ويسير ركبها . . . وأنداده فيها يصلون إلى منازل دونها منزلته ، ويسمون إلى مكانات من تحتها مكانته ، وتسمى إليهم الدنيا أكثر مما سعت إليه ، مع أنه يشاركهم علماً وفقهاً وأدباً ، ويسبقهم ذكاء وحيلة .

وهل هذا الخمول الذى يدفع بنفسه بين أحضانه دفعاً ، يحلو له ويروقه على الدوام ، أم أنه نوبة من نوبات يأسه ، ومضاعفة من مضاعفات قنوطه ، عما قليل يفيق منها ثم يعود إلى سيرته الأولى من الكفاح والجلاد والدأب فى طلب الشهرة ، والجد فى سبيل نعيم الدنيا .

على أننى أكاد أعتقد أن المرء الذى من حقه أن تنبه الدنيا شأنه ، ولكنها حرمته النباهة ، نفس نفسه بين أحضان الخمول دساً ، إنما ابتغى من وراء ذلك الخمول ضرباً جديداً من نباهة الشأن . وما ذلك منه إلا الحيلة الأخيرة لليائس القانط . الحيلة الأخيرة يجربها ، فيدعى الخمول ، ويتخذه وسيلة إلى الشهرة . . ويمقت الدنيا لكى تسعى إليه ، ويتجمع عن الناس لكى يتساءلوا عنه . .

هذه كلها ضروب من المعانى تنتاب ذهن الإنسان عندما يقرأ طوائف من شعر ابن الوردى .

زين الدين بن الوردى — عمر بن مظفر — من أنبغ شعراء النصف الأول من القرن الثامن الهجرى . وقد توفى عام ٧٤٩ هـ وقد نشأ فى مدينة حلب ، وكانت إحدى نيابات المملكة المصرية حينذاك . وقد أوتى ابن الوردى نصيباً محموداً من الذكاء وحضور البديهة وسعة العلم . فقد كان أديباً كاتباً شاعراً فقيها . درس فقه الشافعى فبرع فيه وبذ إخوانه وأصبح من علماء هذا المذهب الأعلام ، حتى إنه اختير للنيابة فى الحكم — أى قاضياً فى الأقاليم — ينوب عن قاضى قضاة الشافعية ، وكان كفئاً فى منصبه .

ومال منذ حداثة سنه إلى الأدب ، فكتب وأنشأ ، وديج الرسائل والإجازات العلمية والمقامات والمفاخرات . وقرض الشعر وافتن فيه ، ونظم فى أبواب منه شتى ، منها : الغزل والفخر والحماسة والمدح والهجاء والنقد والوصف والشكوى والزهد والاعتذار والإخوانيات والفكاهة والنصيحة والحكمة ونظم فى النصيحة والحكمة والنقد قصيدته اللامية المشهورة ذات الأبيات والأمثال السائرة . ونهج فى أسلوبه نهج شعراء عصره من الإغراق فى البديع وبخاصة التورية والتضمين والاقتباس ، مع رصانة وانسجام وقلة تكلف

ولم يقتصر اهتمامه بالأدب على النثر والشعر ، بل نظم فى العلوم وله فى ذلك « نظم البهجة الوردية » فى أكثر من خمسة آلاف بيت ، وهى فى الفقه . وضرب فى الشعر العامى بسهم ، ونظم المواليا والدوبيت .

وفوق ما تقدم برع فى النحو حتى أصبح فيه حجة ، وألف فيه مؤلفات نافعة . وله فى التاريخ كتاب « تتمة المختصر » وهو تذييل على مختصر أبى الفداء . وله فى التقويم كتاب « خريدة العجائب » .

وقد طوف ابن الوردى فى آفاق عدة من الديار الشامية ، وربما وفد على مصر . وذلك سعياً وراء الرزق ، وطلباً للعلم . فاستفاد من العلم شيئاً كثيراً ، وإن كان لم يستفد من الرزق ما يريد

وقد انعقدت فى خلال ذلك أواصر المحبة والمودة بينه وبين كثير من أفذاذ عصره — وقد كان جميله غاصاً بهم — ومنهم أبناء فضل الله العمرى وزراء البلاد الشامية وكتاب سرها . وجمال الدين بن نباتة الشاعر المصرى . وشهاب الدين بن المرحل النحوى المصرى . وعلاء الدين بن أيبك الأديب الدمشقى . والقاضى بدر الدين بن الخشاب المصرى ، والقاضى شمس الدين محمد بن النقيب ، والقاضى كمال الدين بن الزملكانى ، والمجتهد الفقيه ابن تيمية الحرانى . وغيرهم .

وكان ابن الوردى يجادل كلا من هؤلاء ، أو يقارضه الشعر ، مجادلة الند للند ، ومقارضة الصديق للصديق . وهكذا رأسل وساجل . وربما كان من بينهم من هو أرفع منه منزلة وأعز جاها وأوسع مالا ، ولكن وشيجة الأدب والعلم كانت أقرب الوشائج بينهم وأسماها .

نحن لا نحاول هنا أن نترجم ترجمة وافية لابن الوردى . بل ولا نحاول أن نتحدث عن شعره حديثاً كاملا . وكل ما نرمى إليه فى هذه الموجزة أن نتحدث عن خمول ابن الوردى . فكان لابد لنا من أن ننوه بمزاياه ومنزلته بين العلماء والأدباء ، ليحق لنا أن نتساءل بعد ذلك : « هل كان ابن الوردى خاملا » ؟ . . والخامل فى نظرنا رجل قليل الحيلة ضيق المعطن قريب غور الذكاء . ولم يكن ابن الوردى كذلك . فقد قال :

أحسن مدارة الورى يغد عليك نفعها
كم من يد قبلتها كان بودى قطعها

لم يكن ابن الوردى قليل الحيلة ، ولا كان خاملا — كما رأينا — ولكنه مع ذلك ، اعتنق الخمول واتخذه عقيدة له وزميلا . فمقت الدنيا وذم أهلها ، وانجمع عن الناس وابتعد عن مجالسهم ، وطلق المناصب وحمل على الساعين إليها . وكل هذا فى مرارة لديه ولوعة . قال :

أتهزأ بى لما أجد وتلعب وتعجب من حالى وحالك أعجب
ألا طالما قد كنت مثلك ساعياً لجاه ومال جاهداً أتطلب
وطال اجتنابى للخمول فذقته فطاب فأحببت الذى أتجنب
وما العيش إلا فى الخمول مع الغنى
فشكراً لمن فى فضله أتقلب
رضيت كساوى واستخرت بطالتى
وقلبى مسرور وعيشى طيب
وما ذاك عن مال جزيل وإنما كفانى كفاف والقناعة تغلب
ولو ذقتم طيب القناعة منم عليها ولكن بدرها يتهيب
تركت لكم عز القضاء وجاهه وأبعدت عنه خائفاً أترقب
فقوموا على ساق حديد وشمروا
لنيل علاء واهجروا النوم واطلبوا
وميلوا وجوروا واحكموا وتحولوا
وصولوا وطولوا وانبذوا الزهد وانهبوا
ستعلم نفس أى حل تحملت ليوم أسى من هوله الطفل أشيب
لقد نلت من كنز القناعة بغيتى
وجانبت حرصى والحريص معذب
وعفت بنى الدنيا وغادرت برهم لغيرى فلا أشكو ولا أتعتب

(يتبع)

محمود رزق سليم
مدرس بكلية اللغة العربية